الأثر العلمي للمغاربة المالكية في الحرمين الشريفين -كتاب نصيحة المشاور لابن فرحون المالكي أنموذجاً-

The scientific impact of the Maliki almageba in the Two Holy Mosques - the book nasihato mouchaoir Ibn Farhoun Al-Maliki as a model-

عامر مريقي[1] *، الأزهاري دمانة [2]

[1] مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة (الجزائر)، meriameur@gmail.com

[2] جامعة عمار ثليجي الأغواط (الجزائر)، l.demmana@lagh-univ.dz

تاريخ الإرسال: 2023 /03/27 تاريخ القبول: 2023 /05/01 تاريخ النشر: 2023/06/10

الملخص:

يتناولُ هذَا البحثَ دراسة حول الأثر العلمي للمغاربة المالكية في الحرمين الشريفين–كتاب نصيحة المشاور لابن فرحون المالكي أنموذجاً– وقد تم خلاله تسليط الضَّوء على مكانة المؤلف العلمية، ونشأته وثقافته، وحياته، وبيان مؤلفاته وأهميته، والمنهج الذي اتبعه عند كتابته التَّاريخية، كما أظهرت الدراسة مدى أهمية هذا الكتاب الذي زخر بدرر ثمينة وتراجم نادرة لعلماء طيبة الزكية، ووقف الباحثان على الأثر العلمي لمالكية المغرب في بلاد الحجاز من خلال وجودهم وتصدرهم للفقه والحديث.

الكلمات المفتاحية: ابن فرحون؛ المدينة؛ المالكية؛ المغاربة.

* المؤلف المرسل

Abstract:

This research deals with a study on the scientific impact of the Maliki Moroccans in the Two Holy Mosques - the book of advice consulted by Ibn Farhoun Al-Maliki as a model - during which the author's scientific status, upbringing, culture, life, and the statement of his writings and importance, and the approach he followed when writing historically, the study also showed the importance of this book, which abounded with precious pearls and rare translations of the scholars of Taybes Al-Zakiyah, and the researchers stood on the scientific impact of the Malikis of Almageba in the Hijaz through their presence and their leadership of jurisprudence and hadith.

Keywords: Ibn Farhoun; almadina; Malikia; Almaghareba.

مقدمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على خير الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه الأخيار، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، ثم أما بعد:

تمثل المدينة المنورة عند المسلمين قاطبة دُرَّةُ الأوطان، وقُرَّةُ البلدان، وزينةَ الأقطار، وبهجةَ الأمصار، إنها مدينةُ الحبيبِ المصطفى – صلى الله عليه وسلم –، ومُستنبَتُ الشجرة الوارفة، دولةُ الإسلام الأولى، فيها تمَّت قواعدُ الدينِ، وعلى أرضها الطيّبة طُبِّقت أحكامُ الإسلامَ وشُؤونه اصطفها سبحانه وتعالى لتكونَ مُهاجرِ رسوله – صَلى اللهَ عليه وسلم –، هي بعد مكة خير البقاع، وأشرفُ الأماكن والأصقاع، وتاليتُها في الحُرمة والإكرام، والتعظيم والاحترام، فهي قبلة المؤمنين، ومقصد الحجيَج من كل فج **قالَ تعالى** : **"وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ"**[1] وعن أبي هريرةرضي اللَه عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لاَ تُشدَ الرحَال إلا إلى ثلَاثَة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، ومسجد الأقصى»[2] كما جاء في فضلها أحاديث كثيرة، منها ما رواه أبو هريرة– أيضا– عن رسول الله ﷺ: «إن الإيمان لَيَأْرِزُ إلى المدينة كما تأرز الحيَّةُ إلى جحْرها»[3] وهذا المقصد العظيم الذي جعل الناس تشد الرحال وتترك الوطن لأداء فريضة الحج، ومجاورة الحرمين، وقد اغتنم هؤلاء

وجودهم فراحوا يطلبون العلم من منبعه، ويأخذون الرواية عن أصلها، يروي الامام بن عبد البر في جامعه في باب ذكر الرحلة في طلب العلم أنّ جابر بن عبد الله بلغه حديث عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فابتاع بعيراً وشدَّ عليه رحله ثم سار إليه شهراً حتى قدم الشام ليسمع حديثاً من عبد الله بن أنيس الأنصاري[4]، فكانت الرحلة العلمية لها شأن العظيم وفضل البليغ تناولها المؤرخون المسلمون بالدراسة والتأليف على امتداد الحقبات التاريخية إلى يوم الناس هذا، وقد ذكر المؤرخون أنّ الرحلات العلمية لمكة والمدينة إما فردية أو جماعية أو على شكل أسر بأكملها، فقد برز في المدينة المنورة مجموعة من الأسر العلمية، التي تولّت القضاء والتدريس والإقراء والإفتاء في المسجد النبوي، وكان لها أثر فعَّال في نشر المذهب المالكي هناك، تأليفا، وتدريسا، وإفتاء.

ومن أشهر هذه الأسر أسرةُ اليعمريين (آل ابن فرحون) وهي أسرة عُرفت باشتغالها بالعلم، فاشتهر فيها أعلام نبغوا في فنون علمية، وتولوا القضاء خلال القرن السابع والثامن والتاسع، فبنوا مجد هذه الأسرة، مما جعل السخاوي يصفها بقوله: «بيت رياسة وقضاء وعلم»[5]، وتابعه في ذلك التنبكتي فقال: «أهل بيت علم».

غير أنّ العصر المملوكي يختلف عن غيره من العصور، إذ ظهر فيه الكثير من المؤرخين الذين وثقوا ونقلوا لنا صورة واضحة عن جميع مناحي الحياة في عصرهم، وتحديدا في المدينة المنورة، وبرز من بينهم في هذا العصر المؤرخ البدر ابن فرحون –رحمه الله– الذي نقل لنا في كتاباته الكثير من أخبارها في كتابه تاريخ المدينة المنورة، والمعروف بكتاب "نصيحة المشاور وتعزية المجاور.

ومما سبق ذكره طرح الباحثان إشكالاً رئيسياً يتمثل في:

–ماهو الأثر العلمي للمغاربة المالكية من خلال كتاب تاريخ المدينة لابن فرحون؟

وينبثق على هذا التساؤل أسئلة فرعية هي:

– من هو البدر ابن فرحون؟

–كيف تناول الامام ابن فرحون كتابه؟ وماهو المنهج الذي سار عليه؟

للإجابة عن هذه الإشكالات، اتبع الباحثان المنهج الوصفي التحليلي، والمنهج الاستقرائي، فالمنهج الوصفي استعمل لغرض التعريف بالمؤلف رحمه الله وبيان حياته الشخصية والعلمية، ولمحة عامة على الكتاب وبيان منهجه فيه، وأما الإستقرائي لتتبع الأثر العلمي للمغاربة المالكية التي جاء ذكرها في الكتاب وهي كثيرة جدا، اقتصرنا على بعض النماذج.

1. التعريف بالمؤلف –البدر ابن فرحون رحمه الله –

قبل الكلام عن كتاب تاريخ المدينة المنورة وجب إعطاء ترجمة للإمام ابن فرحون رحمه الله من خلال بيان حياته الشخصية والعلمية، وأهم مؤلفاته كما يلي:

1.1 حياته الشخصية :

– اسمه ونسبه هو عبد الله بن محمد بن أبي القاسم فرحون بن محمد بن فرحون[6]، بدر الدّين أبو محمد بن أبي عبد الله بن أبي الفضل، اليعمري، الأبدي، ثم الجبائي التونسي الأصل، نزيل المدينة وقاضيها، المالكي ومؤرخها، المفسر، النحوي.

أصله من تونس، انتقلت أسرته إلى المدينة المنورة، وكان بيتهم بيت علم ورياسة وقضاء.

ولادته

وكانت عائلة ابن فرحون تقيم في إيان إحدى قرى الأندلس[7]، ثم انتقلت إلى مدينة تونس وفيها ولد الإمام في سنة 693 هـ بالمدينة المنورة، ونشأ بها، وكان أول أولاد أبيه وأمه، وهي الشريفة ابنة عبد الواحد الحسيني صالحة.

2.1 حياته العلمية :

نشأ الإمام في بيت علم –كما قدّمنا– فتلقى العلم على أبيه وبعض أعمامه، فأخذ علوم العربية وعلم الحديث في أول طلبه للعلم على يد أبيه الذي كان من مصابيح الدّجى

وبعض أعمامه، قال اليعمري في الديباج: سمعته يقول: "لازمت تفسير ابن عطية حتى كدت أحفظه".

وكان بارعا في علم العربية، وتآليفه فيها شاهدة له بذلك.

ولما لقيه الشيخ أثير الدين أبو حيان –شيخ عصره وإمام وقته في العربية– ووقف على كلامه في "إعراب بانت سعاد"، فقال: "ما ظننت أنه يوجد بالحجاز مثل هذا الرجل"، واستعظم علمه، وأثنى عليه، قال اليعمري في الديباج: وسمعته يقول: "اشتغلت في علم العربية وأنا ابن ثمان عشرة سنة"، وتخرج عليه فيها جماعة فضلاء.

1.2.1–شيوخه وتلاميذه:

قرأ الشيخ القرآن أولًا، ثم أخذ بعلم الحديث الفقه والعربية، ومن مشايخه: والده، مدرس المالكية بالمدينة، ومحمد بن حريث البلنسي، الشيخ عز الدين يوسف الزرندي، والشيخ جمال الدين محمد بن أحمد المقري، والشيخ شرف الدين الزبير الأسواني، وسراج الدين الدمنهوري. وقد سمع بمكّة من الشيخ رضي الدين الطبري. وغيره.

وخرج له الفقيه المحدّث شرف الدين بن سكر المصري –نزيل مكة المشرفة– مشيخة كثيرة حفيلة مشتملة على ذكر شيوخه ومروياته.

سمع منه وتتلمذ عليه خلق كثيرون، منهم: الحافظ العراقي، والجمال محمد وعبد الله وعبد السلام الكازروني، وابن العجمي الشويكي[8].

وقد حدّث ودرس وأفاد، وإليه انتهت الرياسة بالمدينة النبوية، وأقام مدرسا للطائفة المالكية ومتصدرا للاشتغال بالحرم النبوي أكثر من خمسين سنة، وانفرد في آخر عمره بعلو الإسناد، فلم يكن في المدينة أعلى سنا وسندا منه، وكان صبورا على السماع والاشغال، وكان كهفا لأهل السنة، يذب عنهم، ويناضل الأمراء والأشراف، وانتهى بذلك إلى أن امتحن؛ فرصد في السحر بطريق الحرم فطعن طعنة عظيمة أريد فيها قتله، فصرف الله شرها، وعافاه منها.

قال اليعمري: وكان عليه مدار أمور الناس بالمدينة النبوية، وناب في القضاء نحو أربعة وعشرين سنة، وأم في المحراب النبوي في بعض الصلوات، ودعي إلى أن يقوم بالخطابة والإمامة نائبا فامتنع إعظاما للمقام النبوي. وكان كثير التلاوة ليلاً ونهارا، خصوصا في آخر عمره، حتى إني شاهدته في أيام الموسم والنّاس في أشد ما هم فيه من الاشتغال وهو مشغول بوِرده في التّلاوة لا يقطعه عنه شيء، وكان يحيي غالبا الثلث الأخير من الليل بالصلاة والتّلاوة من حداثة سنه إلى أن ثقل بمرض الموت -رحمه الله- ... ولم يخرج من المدينة إلّا إلى مكة المشرفة للحج إلى أن مات بالمدينة. وكان ممن جمع الله تعالى له العلم والعمل والدنيا والدّين، فكان أعظم أهل المدينة يسارا، وأكثرهم عقارا، وأوسعهم جاها، وأنفذهم كلمة، وأعظمهم حرمة، وألينهم عريكة، وأحسنهم بشاشة، صبورا على الأذى، يجزي بالحسنة السيئة، ويسع الناس بخلقه، ويواسي الفقراء بمعروفه، ويصل أعداءه ببره، ويحفظ من مات منهم في ذريته. وبهمته وسياسته أزال الله تعالى أحكام الطائفة الإمامية من المدينة؛ فعزلت قضاتهم، وانكسرت شوكتهم، وخمدت نارهم، وذلك أنه لما باشر الأحكام نيابة عن القاضي تقي الدّين الهوريني في سنة 746هـ سعى في عزل قُضاتهم؛ فنودي في شوارع المدينة بتبطيل أحكامهم والإعراض عن حكامهم، فكان ذلك أول أسباب قُوة أهل السنة وعلو أمرهم، وكم له من حسنات في تمهيد إعزاز السنة وإخماد البدعة، نفعه الله بنيته، وتغمده برحمته.

2.2.1-مصنفاته:

من أثمن ما تركه ابن فرحون من بعده، مصنفاته العشرة التي جاءت في علوم شتى ك: الحديث النبوي، واللغة العربية، وتاريخ المدينة، ولا يزال أغلبها مخطوطًا، وهي[9]:

-الدر المخلص من التقصي والملخص، في الحديث. وشرحه في: كشف المغطى في شرح مختصر الموطأ، أربع مجلدات.

-كفاية الطلاب في شرح مختصر الجلاب، وهو شرح لمختصر التفريغ لابن الجلاب البيلي

-كشف الغطاء في شرح أحاديث مختصر الموطأ"، أورده في أربعة مجلدات.

– نهاية الغاية في شرح الآية وهو عبارة عن أسئلة وأجوبة على آيات من القرآن قال عنه السخاوي واصفا إياه في جودة الإتقان [10].

– التيسير في علمي البناء والتغيير، في النحو.

– المسالك الجلية في القواعد (الفوائد) العربية.

–شفاء الفؤاد في إعراب بانت سعاد.

–شرح قواعد الإعراب لابن هشام.

–العدة في إعراب العمدة في الحديث، وهو أول كتاب يتناول إعراب الحديث كاملا، وهي أحاديث كتاب عمدة الأحكام من كلام خير الأنام المتفق عليها بين البخاري ومسلم، للشيخ عبد الغني المقدسي، وقد أعربها ابن فرحون أعربها إعرابا جامعا لوجوه الإعراب واللغة والاشتقاقات، وسلك فيه مسلكًا غريبا لم يسبق إلى مثله[11].

– تاريخ المدينة "نصيحة المشاور وتعزية المجاور".

لقد كان ابن فرحون عالما بالفقه والتفسير وفقه الحديث، ومعانيه، ظل أكثر من خمسين عاماَ متصدرا للعمل في الحرم النبوي الشريف ومدرسا للمالكية، فهو نزيل المدينة وقاضيها المالكي ومؤرخها [12].

3.2.1–وفاته:

توفي الإمام بعد آخر حجة له، والتي سماها حجة الوداع كما قال صاحب الديباج:" لما حج آخر حجاته قال: "هذه حجة الوداع"، فلما أحس بالمرض، أمر بحفر قبره في بقعة مخصوصة، فظهر مقطع جص لم يدفن فيه أحد قبله، وأوصى أن يعتق عند قبره عبيد، وأن يتصدق على الفقراء بصدقة واسعة، وكتب وصيته بيده، وأخرج من ماله وصايا وتبرعات وصدقات وأوقافاً نحو ثلاثين ألفاً، ووقف على الفقراء فرناَ تصرف غلته عليهم في كل يوم، وأعتق في حياته عدّة عبيد

وإماء، وكان له خادم في الحرم تقرب به لخدمة الضريح النبوي، وكان مطمئن النفس بلقاء الله –عز وجل– مستحضرا لما ينبغي استحضاره

توفي –رحمه الله– يوم الجمعة عاشر ربيع الأخير سنة تسع وستين وسبعمائة. ودفن بمقبرتهم البقيع[13].

2. التعريف بالكتاب – تاريخ المدينة– ومنهجه وأهميته:

بعد ما تعرفنا على الإمام البدر ابن فرحون من خلال حياته الشخصية والعلمية، وذكرنا أهم شيوخه وتلاميذه، وأهم مؤلفاته والتي كان من بينها كتاب تاريخ المدينة، الذي يعتبر من أوسع الكتب وأشملها مقارنة بمن سبقوه في التأليف لتاريخ المدينة المنورة، حيث تناول فيه المؤلف جوانب شتى من الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية والعمرانية بالمدينة المنورة، خلال النصف الأول من القرن الثامن الهجري(08هـ)، كما يعتبر الكتاب خلاصة لتجارب وظروف وأحوال عايشها الإمام وأحداث جرت حوله، وعلماء احتك بهم وسمع منهم مباشرة، وقد ألفه الامام – رحمه الله– في آخر حياته فكان موسوعة لتاريخ المدينة من كل الجوانب، وسنبين تحت هذا العنوان نسبة الكتاب لصاحبه ومنهجه فيه وأهميته كما يلي :

2. 1 نسبة الكتاب:

أوردت المصادر أنّ هذا الكتاب ينسب إلى مؤلفه (ابن فرحون) ومن بين هذه المصادر: كتاب السخاوي، حيث قال"وهو صاحب تاريخ المدينة "نصيحة المشاور وتعزية المجاور"، كما ذكره البغدادي أيضاً، ومما يدل على نسبة الكتاب على مؤلفه وجود الكثير من الروايات في كتب تاريخ المدينة لمؤرخين متأخرين نقلوا عن هذا الكتاب الكثير من الروايات، ومن ذلك على سبيل المثال: السمهودي نقل في كتابه روايات لابن فرحون تتعلق "بسقاية المسجد، والأساطين المنيفة بالمسجد وأبوابه وسور المدينة"[14].

2. 2 منهج ابن فرحون في كتابه:

تميز كتاب البدر ابن فرحون لمجموعة من الخصائص والمميزات، جعلت من أتى بعده من أصحاب التراجم عالة عليه، ومصدراً لا غنى لأي باحث عنه، خاصة إذا تعلق الأمر بعلماء المدينة وأحوالها، ومن أصحاب السير والتراجم الذين اعتمدوا "كتاب تاريخ المدينة" مصدراً تاريخيا نجد الإمام السخاوي في كتابيه "التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة"، و"الضوء اللامع لأهل القرن التاسع"، حيث ينقل السخاوي التراجم بشكل مباشر على الامام ابن فرحون، وقد تمير الإمام ابن فرحون كما ذكرنا بأسلوب فريد من نوعه ومنهجا متميزا في كتابه نحاول إجمال ذلك فيما يلي :

-اعتماده بالدرجة الأولى على المصادر المنقولة من معاصره والروايات الشفهية ويشير إلى ذلك بقوله: "حكا لي "، "أخبرني من أثق به"، " قال لي يوما"....." ومثالا على ذلك أن يأخذ الترجمة من صاحبها يقول الإمام ابن فرحون قال ابن حبيب من علماؤنا".

ومن ذلك أيضاً ترجمته للشيخ افتخار الدين ياقوت بن عبدالله الخزنداري يقول: "ذكر لي أنه خدم الملوك في الديار المصرية مدة خمس وعشرين سنة"[15].

-يذكر تاريخ الولادة للمترجم له والوفاة، لكنه يحرص على تاريخ الوفاة، ويشير على المكان إن أمكنه ذلك.

-عدم ترتيب الشخصيات كما هو الحال قي كتب التراجم.

- استشهاده بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية كان قليل جدا.

-الاكثار من عبارات ألفاظ التبجيل والتقدير والتكريم لأصحاب التراجم، واستعمال عبارات السجع والإطناب لكونه إماما في اللغة.

-كان ابن فرحون أوسع علما ومعرفة بأصحاب التراجم حيث لم يكتف بأخبارهم أثناء محاورتهم للحرم بل يشير إلى أحوالهم قبل مجاورتهم للحرمين الشريفين.

-تميز منهج ابن فرحون في كتابه بأسلوب واضح لمن يترجم لهم، فهو لا يكتفي بذكر اسم المترجم وتاريخ ولادته ووفاته،وإنما يصف شيئاً من أحوال المترجمين، أو نبذة عن أخبارهم وبعض الحوادث التي كانت تحدث لهم، وأحياناً يذكر صلتهم به فيقول مثلاً: "كان لي من ودهم وموالاته نصيب وافر"[16]. وقوله"كان من أصهارنا.[17].

2. 3 : أهمية الكتاب : تظهر أهمية الكتاب في النقاط التالية

-يحتوي الكتاب على تراجم الأعلام الذين كانت لهم صلة بالمسجد النبوي فترجم للمؤذنين والخدام القائمين على خدمة المسجد النبوي والحراس وغيرهم من الفراشين والسقاءين

- أنّ مؤلف الكتاب كان قريباً من الأحداث، فهو ينقل عن شخصيات كان قد عايشها بنفسه أو ينقلها عن الجيل الذي سبقه أو الذي قبله فكان بذلك مصدراً قيماً أغنى الكثير من الموضوعات .

-يعتبر الكتاب مصدراً في تاريخ المدينة السياسي والديني والاجتماعي في تلك الفترة .

-أنه مصدر لكثير من المؤرخين اللاحقين لعصر ابن فرحون، ومن هؤلاء السمهودي في كتابه" وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى"، والعباسي في (عمدة الأخبار). [18].

3. الأثر العلمي للمغاربة المالكية من خلال كتاب تاريخ المدينة:

لعل ما ذكرناه في بيان منهج الإمام ابن فرحون في كتابه، يظهر الفوائد العلمية الجمة التي زخر بها المؤلف والآثار العلمية لمالكية المغرب الذين ترجم لهم الإمام رحمه الله، ومن المفيد أنّ هذه الآثار لم تكن من جهة واحدة، بل كان الاثر متبادل بين المشرق والمغرب، وقد احتوى كتاب تاريخ المدينة على زخم من المعلومات، فهو يؤرخ للأوضاع العامة بالمدينة المنورة في القرنين السابع والثامن الهجريين، وينفرد بالترجمة لأعلام عاصرهم من العلماء والقضاة، والأمراء، وشيوخ الحرم النبوي وخدّامه، والعباد المجاورين فيه، كما يرصد جوانب من أوضاع أهل المدينة الاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، والسياسية، ويصف تنوع طبقات السكان فيها آنذاك،

ومآكلهم ومشاربهم، وعاداتهم في احتفالاتهم ومناسباتهم، وبالتالي فإن الآثار العلمية للمغاربة المالكية متنوعة وكثيرة جاء على ذكرها الإمام ابن فرحون رحمه الله في سياق فصول كتابه خاصة التراجم منها، وقد شهد القرنين السابع والثامن توافد جموع غفيرة من علماء بلاد المغرب إلى بلاد الحجاز، وهذا لما قلَّ الخوف لدى العلماء من مهالك الطريق فنشطت الرحلة، واستقاد العلماء في طريقهم من لقيا الشيوخ، واستأنسوا بالمراكز الاسلامية التي كانت الحركة العلمية نشيطة بها وقتئذ[19].

1.3 الأسباب الداعية للرحلة المغاربة إلى البلاد الحجاز:

هناك أسباب كثيرة يمكن تقسيمها إلى قسمين "أسباب أصيلة وأخرى تبعية"، أما الأصيلة فتتمثل في أداء منسك الحج بالدرجة الأولى قال تعالى: "**وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ**"[20]. والمقصد الثاني مَن المقاصد الأَصلية طلب العلم، فالعلماء المغاربةَ عبرَ التاريخ يعتبرون الشَرقَ مصدر المعرفة الإسلامية لاسيما بلاد الحجاز مهبط الوحي وميلاد رسالة الإسلام، والعلماء المغاربة عبر التاريخ أيضا كانوا يخشون على عامة المسلمين بالمغرب أن يمتحنوا في دينهم، لأنهم كانوا أقرب البلاد الإسلامية إلى أوروبا، واشتد خوفهم عندما ضعفت الدولة الإسلامية بالأندلس بعد القرن السادس، فكثفوا من رحلاتهم إلى الشرق لتعميق معارفهم حتى يحصل عند الناس الثقة بهم[21].

أما الأسباب التبعية والتي لا تقل شأناً عن الأخرى نجد:

– زيارة الاماكن المقدسة ببلاد الشام ولقيا العلماء الكبار بها.

– طلب علو الإسناد لما له قيمة فهو من المقاصد الحسنة التي ينبغي على طالب العلم الحصول عليه يقول ابن رشيد السبتي :" وفي قرب الإسناد بطريق صحيح فوائد كلها بالنفع عوائد، أولها وأجلها : القرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالقرب منه قربة وزلفى إلى الله تعالى"[22].

2.3 الأثر العلمي للمغاربة المالكية على البلاد الحجاز:

الرحلة العلمية هو ارتحال الطلب العلم، ولكشف أمور علمية حتى يتم حصول الكمال والمعرفة، هذا ما يؤكده ابن خلدون في قوله:" في أن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم، والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علماً وتعليماً وإلقاء، وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة، إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشدّ استحكاما وأقوى رسوخا، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها ، والاصطلاحات أيضا في تعليم العلوم مخلطة على المتعلم، حتى لقد يظن كثير منهم أنها جزء من العلم، ولا يدفع عنه ذلك إلا مباشرته، لاختلاف الطرق فيها من المعلمين، فلقاء أهل العلوم وتعدّد المشايخ يفيده تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها فيجرد العلم عنها ويعلم أنها أنحاء تعليم وطرق توصل وتنهض قواه إلى الرسوخ والاستحكام في المكان وتصحح معارفه وتميزها عن سواها مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين وكثرتهما من المشيخة عند تعددهم وتنوعهم وهذا لمن يسر الله عليه طرق العلم والهداية. فالرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم[23].

ولعل هذا الأثر العلمي قد ظهر جليا في إسهامات علماء المغرب في بلاد الحجاز على نطاق واسع، سواء في مجال العلوم النقلية أو العلوم العقلية ظهر ذلك في الحلقات والأربطة والمدارس، أو المصنفات في شتى الفنون، وقد حددت الدراسة مصدرا واحدا، نظهر من خلاله مدى الأثر العلمي للمغاربة في بلاد الحرمين على النحو الآتي :

- **إتساع التأليف في فن الفهارس والمشيخات والأثبات والرحلات :**

لعل الشيء الذي يميز كتاب تاريخ المدينة أنّ صاحبه الإمام ابن فرحون يسرد وهو يترجم للعلماء الذين سمع منهم كل أخبارهم فجاء الكتاب ليترجم لعلمين مشهورين الأول وهو" فريد عصره لسان الأدب، حجة العرب، مجمع أشتات الفضائل شمس الدين أبي عبد الله

محمد بن أحمد بن علي بن جابر الهواري نسبا الأندلسي مولدا ومنشأ ، قرأها علينا بحضرته في الروضة النبوية في سنة ست وستين وسبعمائة رفيقه والثاني هو أخوه في الله تعالى الشيخ الإمام العالم العامل رحلة زمانه ونادرة إخوانه أبو جعفر أحمد بن يوسف بن مالك الغرناطي ، وكان قد سألاني أن يسمعا علي «صحيح البخاري» فأجبتهما إلى ذلك اغتناما لمجالستهما واقتباسا من فوائدهما، فكان الشيخ أبو جعفر هو القارئ ، فإذا فرغ من قراءة أنشد شيئا من ديوان الشيخ أبي عبد الله رفيقه ، وديوانه ديوان عظيم في مجلدين، وقد يسر الله عليه النظم مع البلاغة والفصاحة ودقة المعنى"[24]. فهذان العالمان قد تبادلا مع الشيخ التآليف، وصوب كل واحد منهما مصنف الآخر، وفي هذا فوائد جمة كما يقول الشيخ في النصيحة:" وفي المجاورة الأولى شرح الشيخ أبو عبد الله «ألفية ابن مالك» شرحه المفيد الذي عم النفع به واشتهر اشتهارا عظيما ، وله وللشيخ أبي جعفر تصانيف كثيرة وأوضاع مفيدة، لو رمنا ذكرها ووصف محاسنها لخرجنا عن المقصود، وقرئ علي بحضرتهما تأليفي المسمى «بالعدة في إعراب العمدة» قراءة بحث وتفهم وحصل بذلك خير كثير، فإني وضعته على مثال لم أسبق إليه، وحررته على منوال لم ينسج عليه فصوبا والحمد لله على ما وضعته، وشكرا لي على ما صنعت، جزاهما الله خيرا"[25]، وبعد تمام الرحلة العلمية تحصل الفائدة والثمرة المرجوة فينتقل العالم بعد المشيخة ولقاء العلماء وتنقيح وتصويب التآليف إلى مستقره "ثم ارتحلا من بلاد الأندلس ودخلا غالب بلاد المغرب ورويا الحديث، وأخذا العلم عن الشيوخ، ولهما تأليف في ذكر من اجتمعا به من الأكابر في رحلتهما"[26]

ومن العلماء المبرزين في العلم والتأليف ممن جاور الحرمين المكي أو المدني الإمام أبو محمد عبد الله البسكري، يقول ابن فرحون :" فمن أولهم وأولاهم بالذكر ذو الولاية العلية ، والمقامات السنية، الشيخ الصالح الولي الرباني، أبو محمد عبد الله البسكري[27].، كان في بلاده من أكابرها في النسب، ومن أعيانها في المال والحسب، خرج عن ذلك كله، وانقطع إلى الله تعالى ورسوله، وخرج مجردا فقيرا، صحب مشايخ وقته شرق البلاد وغربها. ومنهم الشيخ أبو محمد المرجاني وغيره ، ثم أوى إلى المدينة في وقت شديد ، على قدم التجريد ، فأقام أولا بالمدرسة الشهابية مدة ، ثم انتقل إلى رباط دكالة ومعه جماعة من أهل المجاهدة والصبر ، فمكث به سنين لا يعلم حاله أحد، ولم يتعرض لزوجة ولا ولد، كان وأصحابه يطوون الأيام على غير شيء من الطعام[28].

- **تكوين الملكات العلمية في شتى فنون الشريعة:**

لقد ساهم علماء مغاربة أفذاذ بشكل كبير في النهضة العلمية في بلاد الحجاز والتي كان لها الأثر البالغ في إحياء المذهب المالكي ليترصع من جديد كما كان في حياة الإمام مالك رحمه الله، وسنحاول ذكر مثال عن كل فن طلبا للإختصار:

-**التفسير**: وقد ساد التفسير بالمأثور في بلاد الحجاز، ولاريب أن تجد أكثر اهتمامهم بالقرآن الكريم يقول ابن فرحون عن نفسه : " لازمت تفسير ابن عطية حتى كدت أحفظه"[29]. ، وقد ترك الشيخ جزء في التفسير ذكرناه سلفا يسمى" نهاية الغاية في شرح الآية: وهو عبارة عن أسئلة وأجوبة على آيات من القرآن قال عنه السخاوي واصفا إياه في جودة الإتقان [30].

-**الحديث**: وكان العلماء يهتمون بالسنة النبوية ولاريب في ذلك فهي الشارحة والمفصلة والمقيدة لما جاء في آيات الذكر الحكيم، فكان المجاورون المغاربة يبحثون عن تلك الروايات ويطلبون في ذلك علو السند المتصل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ورائده في ذلك المحدث عبد الله ابن فرحون اليعمري الجياني(ت769هـ) الذي أشار إليه ابن أخيه صاحب الديباج أنه" أنفرد آخر عمره بعلو الإسناد، فلم يكن في المدينة أعلى سنداً منه، وانتهت إليه الرئاسة هناك مع جاه لم يشاركه فيه أحد"[31].

ومثال آخر ذكره الإمام ابن فرحون وجاءت ترجمته في التحفة اللطيفة المحدث أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الأمين الأقشهري الأخلاطي:" وكان من شيوخ الوقت والأئمة الكبار في العلم والعمل ومعرفة الحديث والرجال الشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الأمين الأقشهري الأخلاطي، ارتحل إلى المغرب في حال شبوبته، وأدرك رجالا من أعيان المغاربة والأندلسيين وعلمائهم، فأخذ عنهم واشتغل عليهم، وطالت إقامته فيهم حتى كان الذي يجتمع به لا يشك أنه مغربي الأصل، وكان قد يسر الله عليه تدوين الحديث والعلم، فلا تسأله عن شيء من علم الحديث ورجاله إلا وجدت عنده منه طرفا جيدا، وحفظا حسنا، صنّف تصانيف كثيرة ،

واختصر مطولات عديدة ، وتردد إلى مكة والمدينة، ثم أقام بالمدينة المشرفة في آخر مدّته وتوفي في سنة 733هـ[32].

- **المساهمة في إحياء المذهب الملكي وإنتشاره:**

لعل من الآثار العلمية التي يجب الوقوف عندها أنّ الرحلات العلمية كان لها الفضل في إنتشار المذهب المالكي، وإحياء مجده كما كان، وساعد في ذلك المطارحات والمناقشات العلمية بين المذاهب الفقهية، وقد كان الفضل –بعد الله عز وجل – للأسرة الفرحونية وعلى رأسها المؤسس أبي عبد الله بن فرحون (ت721هـ)، الذي ساهم مساهمة فعالة في انتشاره بالمدينة المنورة رغم ما لاقاه من الطائفة الشيعية بها إلى أن وافته منيته، ثم خلفه ابنه نور الدين علي الذي كان جهبذا في علوم شتى ونقل لنا ابنه إبراهيم صاحب الديباج أنه كان فاضلا في الفقه والأصول، ولزم الإشتغال بالفقه والعربية في المسجد النبوي[33].

الخاتمة

في ختام هذه الورقة البحثية خلص الباحثان إلى مجموعة من النتائج والتوصيات:

1-النتائج :

- الإمام البدر ابن فرحون رحمه الله إمام فذ له من القدر الكبير بين العلماء فاستحق تلك المكانة العالية بين العلماء.
- المكانة الكبيرة للأسرة اليعمرية التي أوجدت لنفسها مكانا في الحرمين من بين الأسر المغربية المجاورة لبلاد الحجاز.
- يعتبر كتاب تاريخ المدينة أو نصيحة المشاور وتعزية المجاور موسوعة علمية لا غني لأي باحث عنه خاصة تراجم الرجال.
- تمثل الأثر العلمي للمغاربة المالكية في مايلي:

*إتساع التأليف في فن الفهارس والمشيخات والأثبات والرحلات.

*تكوين الملكات العلمية في شتى فنون الشريعة.

*المساهمة في إحياء المذهب الملكي وإنتشاره.

2-مقترحات :

-الإهتمام بكتاب تاريخ المدينة من خلال إعادة ترتيب تراجمه على نسق حروف العجم.

- البحث التاريخي المعمق للأسر المالكية المغمورة التي جاورت الحرميين والتي أدت دورا في إحياء المذهب المالكي انتشاره من جديد.

المراجع:

-إبراهيم بن علي بن محمد، ابن فرحون، برهان الدين اليعمري (ت ٧٩٩هـ)، **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**، تحقيق وتعليق: الدكتور محمد الأحمدي أبو النور، (دار التراث للطبع والنشر، القاهرة) .

-إبراهيم بن علي بن محمد، ابن فرحون، برهان الدين اليعمري (ت: 799هـ) ، **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**، تحقيق وتعليق: الدكتور محمد الأحمدي أبو النور، (دار التراث للطبع والنشر، القاهرة)

-ابن حجر ، احمد بن حجر العسقلاني :**الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة** ، (دار احياء التراث العربي، بيروت، د.ت)

- ابن عبد البر، **جامع بيان العلم وفضله**، تح : أبي الأشبال الزهيري، (دار ابن الجوزي).

-أبو محمد عبد الله بن محمد بن فرحون المالكي ، **تاريخ المدينة المنورة**، (شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع).

-إسماعيل باشا البغدادي (ت ١٣٩٩ هـ)، **هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين**، (طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية استانبول ١٩٥١، تصوير: مؤسسة التاريخ العربي - دار إحياء التراث العربي بيروت).

-بدرية بنت عبد العزيز البصيري، **نصيحة المشاور وتعزية المجاور لابن فرحون، مصدرا للحياة الاقتصادية في المدينة النبوية خلال العصر المملوكي الأول 684هـ-784هـ-1250م-1382م** (مجلة وقائع تاريخية، عدد34، يناير2021) .

- جلال داوود، محمد عواد، **التأويل بالحذف عند ابن فرحون في كتابه العدة في إعراب العمدة**، (مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الإنسانية المجلد 28 ، العدد 3، سنة 2021).

-سالمة محمود محمد عبد القادر، **شيوخ خدام الحرم النبوي في كتاب نصيحة المشاور وتعزية المجاور لابن فرحون**، (مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية، مجلد 13، عدد01، 2018م).

-شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي (ت: 902هـ)، **التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة** ، (الكتب العلمية، بيروت –لبنان ، الطبعة: الاولى 1414هـ/1993م).

-شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي (ت: 902هـ)، **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، (منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت).

-عامر مريقي، إبراهيم بحاز، **دور علماء المغرب في بلاد الحجاز، ق6-9هـ/12-15م**، (مجلة الإحياء المجلد 12، العدد 28، جانفي 2021) .

-علي محمد جبران، **معالم الفكر التربوي عند ابن خلدون** ، (مجلة إسلامية المعرفة السنة الثالثة عشر، ع1428،51هـ-2007م).

-ناجي لمين، **رحلات علماء المغربين الأقصى والأوسط المكية وأثارها العلمية من خلال القرنين السابع والثامن الهجريين** ،دار الكلمة للنشر والتوزيع، ط1، 2016م، مصر القاهرة.

-هدى محمد سعيد سندي، **مناهج الكتابة التاريخية للمدينة المنورة في القرن الثامن الهجري**، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي، إشراف الأستاذ فوزي محمد ساعاتي، جامعة أم القرى كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، 1427هـ-1428/2006-2007م .

الهوامش:

1 سورة الحج، الآية 27

2 سورة الحج، الآية 27

3 سورة الحج، الآية 27

4 ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، تح : أبي الأشبال الزهيري، (دار ابن الجوزي)، ص389.

5 شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي (ت: 902هـ)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، (منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت)، ج5 ص 55.

6 - إبراهيم بن علي بن محمد، ابن فرحون، برهان الدين اليعمري (ت ٧٩٩هـ)، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب تحقيق وتعليق: الدكتور محمد الأحمدي أبو النور، (دار التراث للطبع والنشر، القاهرة) (١/ ٤٥٤ وما بعدها). السخاوي ، محمد بن عبد الرحمن ، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة ، (دار الكتب العلمية، ط1، بيروت،1993،)ج2،ص85 وما بعدها. إسماعيل باشا البغدادي (ت ١٣٩٩ هـ)، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، (طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية استانبول ١٩٥١، تصوير: مؤسسة التاريخ العربي – دار إحياء التراث العربي بيروت).

7 قرية إيان الواقعة بالقرب من قرية جيان بالأندلس.

8 ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (١/ ٤٥٤ وما بعدها). السخاوي، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، ج2،ص85 -87.

9 بدرية بنت عبد العزيز البصيري، نصيحة المشاور وتعزية المجاور لابن فرحون، مصدرا للحياة الإقتصادية في المدينة النبوية خلال العصر المملوكي الأول 684هـ-784هـ-1250م-1382م (مجلة وقائع تارخية، عدد34، يناير2021، الجزء 01) ص216.

10 شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي (ت: 902هـ)، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة ، (الكتب العلمية، بيروت –لبنان ، الطبعة: الاولى 1414هـ/1993م). ج2 ، ص216.

11 جلال داوود، محمد عواد، التأويل بالحذف عند ابن فرحون في كتابه العدة في إعراب العمدة، (مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الإنسانية المجلد 28 ، العدد 3، سنة 2021)، ص400.

12 سالمة محمود محمدعبد القادر،شيوخ خدام الحرم النبوي في كتاب نصيحة المشاور وتعزية المجاور لابن فرحون، (مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية، مجلد 13، عدد01، 2018م) ص38

13 وحجا ابن فرحون خمساً وخمسين حجة ينظر: ابن حجر ، احمد بن حجر العسقالني :الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة ، (دار احياء التراث العربي، بيروت، د.ت) ج2 ،ص 300، رقم الترجمة 2228 ؛ السخاوي :التحفة اللطيفة ،ج2،ص85_86.

14 هدى نحند سعيد سندي، مناهج الكتابة التارخية للمدينة المنورة في القرن الثامن الهجري، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي، إشراف الأستاذ فوزي محمد ساعاتي، جامعة أم القرى كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، 1427هـ-2007-2006/1428م ، ص 98-99.

15 أبو محمد عبد الله بن محمد بن فرحون المالكي ، تاريخ المدينة المنورة، (شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع).ص 169.

16 المصدر نفسه ، ص 59.

17 هدى نحند سعيد سندي، مناهج الكتابة التارخية للمدينة المنورة في القرن الثامن الهجري، بتصرف من ص103إلى 114. ينظر كذلك: بدرية بنت عبد العزيز البصيري، نصيحة المشاور وتعزية المجاور لابن فرحون، مصدرا للحياة الإقتصادية في المدينة النبوية ، ص217.

18 مرجع نفسه، ص103.

19 ينظر : أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني ص 110-116. ولذلك نجد أن بعض فقهاء المغاربة لم يحجو مثل القاضي عياض بسبب أخطار الطريق.

20 سورة الحج، الآية 27

21 ناجي لمين، رحلات علماء المغربين الأقصى والأوسط المكية وأثارها العلمية من خلال القرنين السابع والثامن الهجريين ،دار الكلمة للنشر والتوزيع، ط1، 2016م، مصر القاهرة، ص17

22 نقلا: عن ناجي لمين، رحلات علماء المغربين الأقصى والأوسط المكية وأثارها العلمية من خلال القرنين السابع والثامن الهجريين ، ص17

23 علي محمد جبران، نعالم الفكر التربوي عند ابن خلدون ، (مجلة إسلامية المعرفة السنة الثالثة عشر، ع1428،51هـ-2007م)، ص70

24 تاريخ المدينة المنورة :ابن فرحون ، ص119

25 المصدر نفسه، ص119.

26 المصدر نفسه ص 120.

27 عبد الله بن عمر بن موسى ، أبو محمد البسكري المغراوي. ترجمته في : «التحفة اللطيفة» ٢ / ٦٦ (٢١٨١) ، نقلا عن ابن فرحون ، ووقع في الترجمة المذكورة :«اليشكري» ، وهو خطأ.

28 المصدر نفسه ص 59.

29 المصدر نفسه ص 09.

30 السخاوي ، التحفة اللطيفة ، ص216.

31 عامر مريقي، إبراهيم بحاز، دور علماء المغرب في بلاد الحجاز، ق6-9هـ/12-15م، (مجلة الإحياء المجلد 12، العدد 28، جانفي 2021) ص926

32 تاريخ المدينة، ص 97. قال عنه السخاوي :" فتح الله عليه في خدمة الحديث بابا سهل عليه مدخله فعلم الحديث وتدوينه محطه ومرحل صنف فيه تصانيف وجمع وألف فيه تآليف ونفع وكان مترددا بين الحرمين رافعا من شرف جوارهما علمين ثم أنه اختار بالآخرة مجاورة المدينة" ج2، ص411.

33 عامر مريقي، إبراهيم بحاز، دور علماء المغرب في بلاد الحجاز، ق6-9هـ/12-15م، ص927 .